حروف حرّة

مجلة تصدر عن جمعية تونس الفتاة

العدد الأول

مارس 2021

إيران والقاعدة... ما وراء الخلفية الإيديولوجية

لماذا نجح قيس سعيّد بهذه الفصحى؟

قراءة في مذكّرات خير الدين باشا: التقاء الذاتي بالموضوعي

هل فعلا كل شيء يحدث لغاية معيّنة؟

نمط الإنتاج المخامسي وجذور التّخلّف

تقرؤون في هذا العدد:

حروف حرّة... عود على بدء ص. 3
حمزة عمر

إيران والقاعدة... ما وراء الخلفيّة الإيديولوجية ص. 4-5
أنيس عكروتي

لماذا نجح قيس سعيّد بهذه الفصحى؟ ص. 6-7
حمزة عمر

قراءة في مذكرات خير الدين باشا: التقاء الذاتي بالموضوعي ص. 8-9
هشام الزعبي

نمط الانتاج المخامسي والجذور التاريخية للتخلف ص. 10-12
فهمي رمضاني

هل فعلا كلّ شيء يحدث لغاية معيّنة؟ ص. 13
خولة القاسمي

حروف حرّة

مجلّة شهرية تصدر عن
جمعية تونس الفتاة

تأسسّت في مارس 2021

رئيس التحرير
حمزة عمر

فريق التحرير
أنيس عكروتي
خولة القاسمي
فهمي رمضاني
هشام الزعبي

تصميم الغلاف
خولة القاسمي

التصميم الداخلي
حمزة عمر

للتواصل معنا
redaction@tounesaf.org

حروف حرّة... عود على بدء

بقلم: **حمزة عمر**
رئيس جمعية تونس الفتاة
hamza@tounesaf.org

في البدء كانت الكلمة... وإليها نعود.

قبل أن تكون تونس الفتاة جمعيّة، انطلقت في 8 ماي 2011 في شكل جريدة الكترونية مفتوحة على كلّ جميع المساهمات مهما كان توجّهها من داخل البلاد وخارجها. استمرّت هذه الجريدة لأكثر من سبع سنوات تمّ خلالها نشر عشرات المقالات والنصوص الأدبية والتغطيات الصحفية الّتي نُشر بعضها في كتب جماعية: "نفحات من تونس الفتاة" في جزئه الأوّل سنة 2012 وجزئه الثاني سنة 2013 ثمّ "لنكتب الفصل القادم" في 2016.

غير أنّه كانت لهذا الشكل المفتوح سلبياته. فالاكتفاء بضوابط دنيا في قبول المقالات (أن يكون المقال على درجة من الجديّة وألّا يدعو إلى العنف) لم يجعل من الجريدة تتبلور كمشروع واضح المعالم له سياسة تحريرية واضحة بل أنّها كانت بمثابة المنبر المفتوح الذي يمكّن الجميع من التعبير عن آرائهم، حتّى إن كانت مناقضة لتوجّهات الجمعيّة نفسها. كما أنّه أدّى إلى "تعويم" بريد الجريدة بمئات من الكتابات الّتي لم يكن الفريق المشرف قادرا على التعامل معها بسرعة، لا سيّما مع ضغط بقيّة الأنشطة. كلّ هذه الاعتبارات أدّت إلى اتخاذ القرار الصعب بغلق الجريدة الالكترونية في أواخر 2018.

خلال مسار إعداد الخطّة الاستراتيجية الثالثة للجمعية (2021-2023)، أكّدت النقاشات على ضرورة وجود منصّة تعبّر عن توجّهي الجمعية الأساسين في هذه الفترة، ونعني بهما ترسيخ الفكر النقدي ودعم الإبداع خصوصا لدى الباحثين والأدباء الشبّان، وتتيح الفرصة لأعضاء الجمعية بالأساس لطرق مختلف المواضيع، إذ نزعم أنّ لديهم من جديّة الطرح وطرافة المقاربة وغزارة المادة ما يمكّن هذه المنصّة أن تكون علامة مميّزة في الساحة الثقافية في تونس. ولتجنّب إشكاليات الشكل القديم، تمّ التوافق على إصدار المجلّة بشكل رقمي في نسخة قابلة للطبع (بما أنّ الإمكانيات لا تسمح بالطبع الفعلي!)

تأتي "حروف حرّة" لتحرّر أقلام عدد من الشباب المصرّين على الإصداع بأصواتهم والمواصلة في الفعل الثقافي في زمن توشك فيه الثقافة تنحصر في الترفيه الاستهلاكي، كما نطق بذلك أسمى مسؤولي هذه الدولة. نأمل أن يُكتب لهذه المبادرة الدوام وأن يتهيّأ لها من القرّاء ما يمكّن من الارتقاء بها إلى آفاق أرحب...

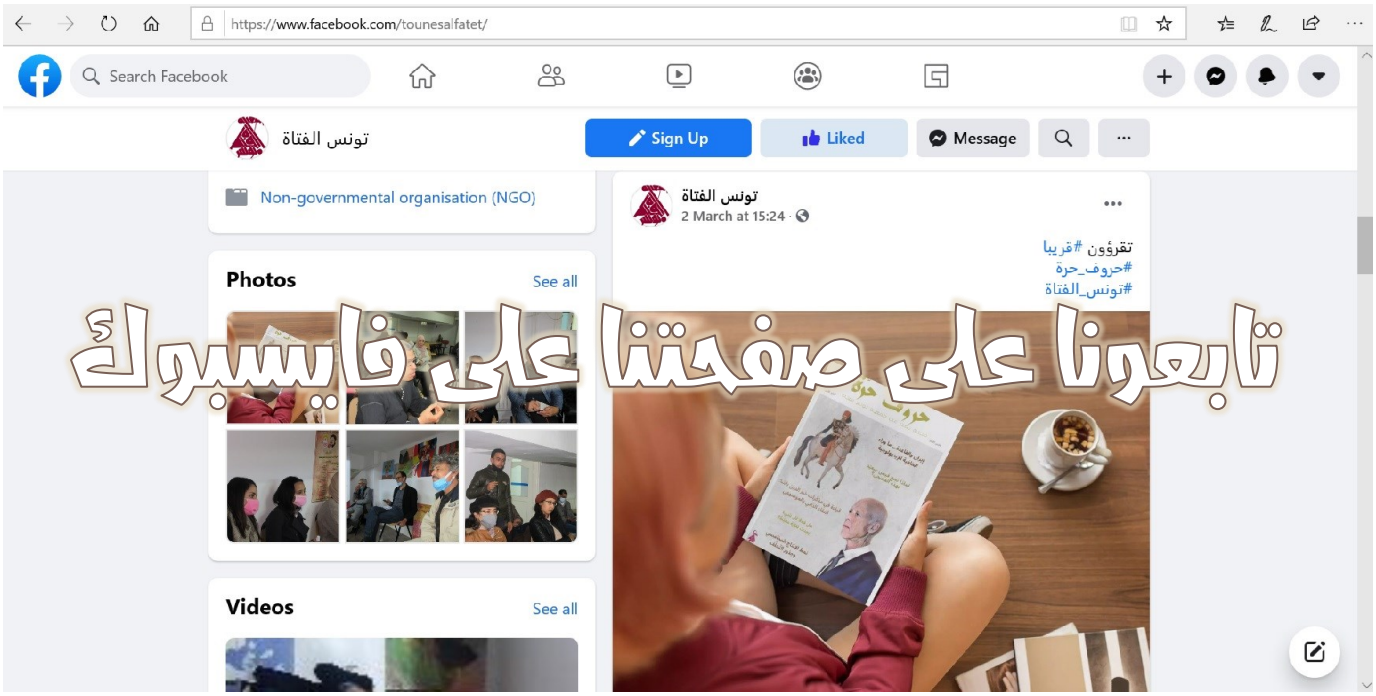

إيران والقاعدة... ما وراء الخلفيّة الإيديولوجية

بقلم: أنيس عكروتي
عضو مؤسّس لجمعية تونس الفتاة
مهندس بيولوجي
باحث في شؤون الجماعات الجهادية
anis@tounesaf.org

يوم الثاني عشر من شهر جانفي الفارط لم يكن يوما عاديّا في سجّل العلاقات الأمريكيّة الإيرانيّة، إذ وصف وزير الخارجيّة الأمريكي مايك بومبيو إيران بأنّها بمثابة "أفغانستان جديدة" بالنسبة لتنظيم القاعدة.

لا يعتبر هذا التصريح مهمّا لكونه يتطرّق لطبيعة العلاقات بين إيران وتنظيم القاعدة فحسب بل لأنّه يأتي إثر إماطة اللثام عن كنز معلومات نوعيّ. فمن مخبأ أسامة بن لادن في آبوت آباد تكشف الوثائق والوسائط التكنولوجية عن رسائل تساعد في تحديد شكل العلاقات بين الطرفين.

تتباين الآراء في شأن هذه العلاقة بين القائل بتحالف استراتيجي بين دولة ولاية الفقيه وأهمّ تنظيم جهاديّ قبل بروز تنظيم الدولة الإسلامية، تحالف يستهدف الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل وحلفاءها في منطقة الخليج أساسا، وبين قائل ببطلان هذه الاتّهامات وإظهارها في شكل تآمري شبيه بملف أسلحة الدمار الشامل العراقية..

بين الرأيين هناك مجال آخر للتفكير والتحليل والحديث يطول في هذا الموضوع نظرا لعراقة هذه العلاقة أوّلا وطبيعتها المعقّدة ثانيا، هذا إضافة إلى المناورات السياسية بين الطرفين لتحسين شروط التفاوض خاصّة في أهم ملفّ عالق وهو البرنامج النووي الإيراني.

ما يميّز هذه العلاقة يمكن تلخيصه في رسالة وجهّها الإيرانيّون للقاعدة وأخرجها مسؤول كبير في التنظيم للعلن في شهر ماي من سنة 2010، ممّا ورد فيها: "لا مانع عندنا أن يأتي إخوة منكم (عرب أو غيرهم) ليعملوا في التنسيق وجمع الأموال وغيرها، من خلال إيران، ولكن عليهم ألا يأتوا بطرق رسمية، بل يأتون بالتهريب، ولا يأتون كذلك بالإخوة من الخارج عبر الطرق الرسميّة وخاصة المطارات، بل يأتون بهم بطرق التهريب (من تركيا أو غيرها).

ولا تتعاملوا مع أي إيرانيّ (يعني لا تشغّلوا إيرانيّين في عملكم ولا تتعاملوا مع إيرانيّين في الشغل)."

من الجانب الآخر، سبق لبن لادن نفسه أن ذكر سنة 2007 أنّ "إيران هي الشريان الرئيسي للأموال والأفراد والاتصالات." صحيح أنّ القاعدة تتعامل بحذر مع الجانب الإيراني ولكن ليست لها خيارات كثيرة نظرا لإقامة عدد من قيادات وعناصر التنظيم لإيران، وهنا نتحدّث عن أسماء وازنة لعلّ أبرزها أبو محمّد المصري، الرجل الثاني بالقاعدة والذي قُتِل في قلب طهران يوم 7 أوت الماضي تزامنا مع ذكرى الاعتداءين الذين استهدفا سفارتين أمريكا في نيروبي ودار السلام سنة 1998.

اتّهمت واشنطن المصري آنذاك بتنسيق الهجمات التي أودت بحياة 224 شخصا وخلّفت 400 إصابة على الأقل. وقد كان يقيم بإيران مع عائلته، فالقاعدة كانت تبحث عن ملاذ آمن إثر اجتياح القوات الأمريكية لأفغانستان سنة 2001. قبل هذا الحدث لم تكن العلاقات متوترة بين الجانبين بل كان هناك حديث عن تنسيق حدث بينهما في السودان أيّام كانت ملجأً للإسلاميّين من مشارب عدّة.

كان المصري وغيره من القيادات مثل سيف العدل، المرشح الأبرز لخلافة الظواهري على رأس التنظيم، يُعتبرون ورقات ضغط سياسية تلوّح بها إيران سرّا في مواجهة العقوبات الاقتصاديّة الغربية. إضافة إلى ذلك، تمّ استثمار هذا الوجود القاعدي سنة 2015 عندما تمّ الإفراج عن دبلوماسي إيراني اختطفته عناصر جبهة

"
سبق لبن لادن نفسه أن ذكر سنة 2007 أنّ "إيران هي الشريان الرئيسي للأموال والأفراد والاتصالات."
"

المصدر: أسوشيتد برس

النصرة الموالية للقاعدة آنذاك مقابل منح إيران قيادات القاعدة هامشا أوسع من التحرّك.

لعّل أكثر ما يثير استغراب البعض في طبيعة هذه العلاقة هو الحاجز العقائدي الإيديولوجي فما الذي يمكن أن يجمع بين إيران كمركز ثقل الإسلام السياسي الشيعي والداعمة بقوة لتنظيمات سياسية مسلّحة تصادمت كثيرا مع تنظيمات ولدت من رحم القاعدة بالتنظيم الذي ظلّ لسنوات عديدة الممثّل الأبرز للتيّار الجهادي في نسخته السنّية؟

يبدو أنّه ليست لإيران احترازات جوهريّة على جزء أو شقّ من القاعدة بعينه ممثّلا في المصرّي وهنا نعني أساسا مجموعة الظواهري وسيف العدل وغيرهما وهي المجموعة التي تتصدّر هرم مركزية القاعدة. ممّن يعتبرون الأبناء الشرعيّين لسيّد قطب وأبرز مؤسسي التيّار القطبي أو الجهادي الذي لم يتبنّ المنهج السلفي العقائدي الكلاسيكي بل وكان في صدام وتناقض فكريين معه حتّى أنّ قطب هُوجم ويُهاجَم من أئمة التيّار السلفي النجدي لجرأته في نقد صحابة وأنبياء. تشترك هذه المجموعة مع النسخة الشيعية في الجانب الثائر للإسلام فقطب وبعده تلاميذه لم يعيروا الاختلاف المذهبي أيّ اهتمام يُذكر[1].

تربط القاعدة بإيران علاقة التقاء مصالح فالتنظيم يبحث لملجأ آمن لقيادته وإيران تهدّد باستغلال الورقة ضدّ خصومها وهو ما جعل الإدارة الأمريكية تبدي تخوّفها من توظيف القاعدة للتكنولوجيا الإيرانيّة خاصّة على مستوى الجانب الاتصالي. لا يمنع ذلك إيران من التشدّد تجاه القاعدة كلّما اقتضت الظروف ذلك، فإقامة قيادات القاعدة بطهران مقيّدة كثيرة وأشبه بالإقامة الجبريّة. وتفاعلا مع الضغوط الأمريكية في 2002 و2003، شنّت طهران حملة اعتقالات واسعة في صفوف عناصر التنظيم الجهادي وراجت أخبار حتّى عن تعذيب وانتهاكات جسدية بحقهم.

في ظلّ الاتّفاق النوويّ المرتقب بين إدارة بايدن ونظيرتها في طهران، من الوارد جدّا أن الذهاب في اتّجاه تسليم قيادات القاعدة المقيمة بإيران مقابل رفع العقوبات الاقتصاديّة والذهاب نحو صفحة جديدة من العلاقات بين الدولتين ودول الخليج أيضا. هذا الأمر وحده يمكن أن يدفع بالقاعدة لشنّ هجمات مسلّحة تستهدف المصالح الإيرانيّة ممّا قد يفتح صفحة أخرى من العلاقات المتشابكة بين الجانبين.

> *"من الوارد جدّا أن الذهاب في اتّجاه تسليم قيادات القاعدة المقيمة بإيران مقابل رفع العقوبات الاقتصاديّة والذهاب نحو صفحة جديدة من العلاقات"*

[1] يروي الصحفي يسرى فوده طرفة تبرز اختلاف الروافد داخل القاعدة أثناء محاورته لخالد الشيخ محمد ورمزي بن الشيبة في بينهما بباكستان. فعندما همّ فوده بتدخين سيجارة عارضه بن الشيبة اليمني القادم من بيئة سلفيّة تقليديّة واسترسل في ذكر الأدلّة الشرعيّة عن تحريم التدخين، فقاطعه خالد الشيخ محمّد، وهو يمثّل الجانب السياسي للقاعدة، داعيا فوده لمواصلة التدخين

لماذا نجح قيس سعيّد بهذه الفصحى؟

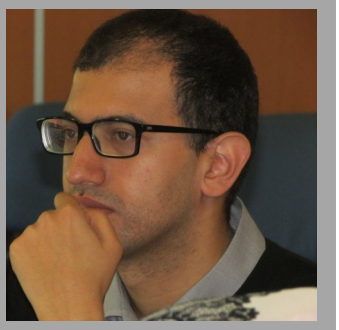

بقلم: **حمزة عمر**
رئيس جمعية تونس الفتاة
hamza@tounesaf.org

عادة ما ينصح خبراء الاتّصال السياسي المترشّحين إلى أيّ انتخابات باجتناب التعقيد في خطاباتهم واعتماد لغة سهلة يمكن للجميع فهمها، ذلك أنّ عدم الفهم يعني وجود فجوة بين السياسي والناخب، ولِمَ يصوّت المرء لصالح شخص لا يفهمه؟

غير أنّ قيس سعيّد لم يكتف بأن يشذّ عن هذه القاعدة، بل ذهب في مخالفتها إلى أقصى ما يُمكن، فهو لا يكتفي بتجنّب الحديث بالدارجة التونسية، بل أنّه يصرّ على اعتماد لغة فصحى عتيقة يلوّنها بأمثلة مأخوذة من المعجم القرآني والكتب التراثية، وهو ما يواصل القيام به حتّى بعد فوزه في الانتخابات الرئاسية لسنة 2019.

لا يبدو أنّ اعتماد هذا اللون من الفصحى قد أثّر على شعبيّة قيس سعيّد، بل بالعكس. بعد أن شهدنا كيف "اكتسح" الدور الثاني من الانتخابات الرئاسية، نجده الآن يتصدّر جميع استطلاعات الرأي بفارق كبير عن أقرب منافسيه. وبصرف النظر عن تقييم مواقفه ومنجزه بعد مضيّ أكثر من عام على تولّيه رئاسة الجمهوريّة، لا يبدو أنّ اللغة التي ينطق ويكتب بها أثّرت سلبا على صورته لدى التونسيين، بل لعلّها تمثّل الآن أحد عوامل جاذبيته.

قد يُربك ذلك أنصار البساطة في الخطاب السياسي، ولكن يبدو أنّنا أمام ظاهرة استثنائية حقّا. فكيف يمكّن استعمال لغة شديدة التنائي عن اليومي من اكتساب مثل هذه الحظوة الّتي لقيس سعيّد الآن؟

ربّما يمكن تفسير ذلك بعاملين: فلغة قيس سعيّد توحي في نفس الآن بالأصالة والتعالي، وكلاهما لعب دورا هاما فيما يبدو في بناء صورته على النحو الذي هي عليه.

لغة توحي بالأصالة

يُستعمل مصطلح الأصالة لوصف شيئين: فقد يحيل إلى معنى التجذّر في الأصول (authenticité) كما قد يحيل إلى معنى التفرّد والطرافة (originalité). ونرى أنّ للغة قيس سعيّد نصيبا من المعنيين.

لغة تحيل إلى التجذّر

الصراع في تونس بين العربية والفرنسية قديم، يتجاوز تاريخ الدولة الوطنية ذاته. ومن الأفكار السائدة لدى قطاع هام من التونسيين ولدى جزء من الطبقة السياسية في البلاد- بعضها تحوّل الآن من نصرة قيس سعيّد إلى معاداته- أنّ هناك نخبة فرنكوفونية تهيمن على الشأن العام وتسيّره وفق مصالحها. صاحبت فعلَ الثورة، لدى الكثيرين، رغبة في التحرّر من هيمنة هذه النخبة وتجسّد ذلك في التركيز الكبير على الصراعات الهووية، خصوصا في الفترة السابقة لصدور دستور 2014، ممّا لعب دورا كبيرا في توجيه الحياة السياسية.

دون أن يحتاج إلى بيان ذلك في مضمون خطابه (وإن يكن قد فعل)، تأتي لغة قيس سعيّد لتؤكّد بشكل لا لبس فيه على موقفه من هذه القضيّة. باعتباره مدرّسا جامعيا، فهو ينتمي إلى النخبة ولكنّه من أولئك الأفراد الّذين حسموا في قضيّة الهويّة لصالح الانتماء العربي الإسلامي. هذا الانتماء الّذي يرى أنصاره انّه كان مغيّبا في العهد السابق يعود لفرض حضوره بقوّة رمزيا من خلال انتخاب رئيس متمسّك باستعمال الفصحى بعد سلسلة من الرؤساء "المتفرنسين" الّذين استمرّوا حتّى بعد الثورة. ويمعن قيس سعيّد في التأكيد على معنى التجذّر من خلال الأمثلة الّتي يضربها في خطابها والتّي يعود بعضها إلى التراث العربي القديم (الإخشيدي، زقفونة...).

لغة تحيل إلى الطرافة

جرت العادة في تونس أنّ جميع الخطابات الرسميّة تؤدّى بالفصحى. لكن فيما عدا ذلك، تستعمل الدارجة التونسية في اللقاءات الإعلامية. قد تختلف درجات استعمالها، فنجدها مطعّمة بالفرنسية لدى البعض، أو تحاول الاقتراب من الفصحى لدى البعض الآخر.

لكنّنا لم نشهد في تونس سياسيّا يستعمل الفصحى في تواصله العادي اليومي، مثلما يفعل قيس سعيّد. فلئن كان المجتمع استبطن هذه الازدواجية بين الفصحى والدارجة إذ حصر الأولى في الرسميّات دون التواصل العادي، نجد أنّ قيس سعيّد يرفض هذه الازدواجية ويتحدّث في جميع أموره بلغة واحدة فصيحة قد تلحق بها في أحيان قليلة ألفاظ عاميّة لا تؤثّر عادة على فصاحتها.

ينفرد سعيّد بذلك عن جميع السياسيين، وكأنّنا به يعلن أنّه، عكس ما يرمون به جميعا، ينفر من كلّ ازدواجيّة في الخطاب ويصرّ على أن يكون نفسه دائما، في سريرته كما في علانيته. ولعلّه يذكّرنا في ذلك بنماذج طريفة، لعلّ بعضنا عرفها، عن مربّين كانوا يصرّون على التحدّث بالفصحى حتّى خارج الدروس. هو يُرجعنا كذلك إلى

> *"لم نشهد في تونس سياسيّا يستعمل الفصحى في تواصله العادي اليومي، مثلما يفعل قيس سعيّد."*

سؤال "آش بيك تحكي بالفقهي؟" الّذي يحيل، فضلا عن طرافة الحديث اليومي بالفصحى في مجتمعنا، إلى استبطان لتعاليها عن الدارجة.

لغة توحي بالتعالي

عادة ما ينفر الجمهور من أيّ خطاب يتعالى عليه، لكن في حالة قيس سعيّد يبدو أنّ العكس هو الّذي حصل. ذلك أنّ اللغة المستعملة تحيل إلى الصلابة في المواقف والسموّ الأخلاقي.

لغة تحيل إلى الصلابة في المواقف

يعمد قيس سعيّد في مختلف أحاديثه إلى الضغط بشكل واضح على مخارج الحروف. هو لا يحاول انتقاء الألفاظ التي تتسّم بالسلاسة والتي تكون أخفّ وقعا على أذن المستمع، بل أنّه لا يبالي بما يستعمله من ألفاظ وتعابير، حتّى إن كانت حوشيّة أو مهجورة، ما دامت هي الأقرب للتعبير عمّا يريد قوله، كما أنّه من المألوف عنده أن يسترسل في الحديث لمدّة طويلة، حتّى وإن كرّر نفس الأفكار بل ونفس الألفاظ أحيانا.

حتّى قبل ترشّحه للرئاسية، تولّد انطباع لدى المستمعين إليه أنّ طريقة حديثه ليست طبيعية. شبّهه بعض الساخرين بالإنسان الآلي وبالقطار الّذي إذا انطلق فهو لا يتوقّف ورموه بالجمود وحتّى بالتوحّد. ولكنّ تقبّل غالبية الجمهور لهذه الطريقة كان مختلفا. تضحي طريقة الكلام الثقيلة علامة على عمق ما تحمله من دلالات، ويصبح الاسترسال المطوّل آية الوثوق التام في صواب الرأي، ويصير التكرار الدائم دليل التمسّك الشديد بالمواقف. إنّ "إهمال" المتلقّي يتحوّل لدى قيس سعيّد إلى ميزة له على سائر السياسيين فهو على عكسهم لا يساير ما يريده الجمهور، بل يمضي فيما يريده

المصدر: فتحي بلعيد/فرانس برس

دون أن يبالي بشيء، مترفّعا عن صغائر السياسة كما يراها.

لغة تحيل إلى السموّ الأخلاقي

تؤكّد مختلف استطلاعات الآراء على ضعف ثقة التونسيين في السياسيين عموما وفي الأحزاب على وجه الخصوص. ولئن كان الرأي الشائع يميل إلى الإجماع حول فساد الطبقة السياسية، فقد ظلّ الجميع يبحث عن استثناء.

جاء قيس سعيّد ليتحدّث إلى الجمهور بلغة فصحى معتّقة ربّما يعسر فهمها على البعض ولكنّهم مع ذلك انبهروا بها، فما دام يتحدّث بهذه اللغة المتعالية عن حديثنا اليومي، فلا شكّ أنّه يتسامى عمّا يشوب حياتنا من انحطاط. كأنّه إذ يتحدّث هذه اللغة يعلن أنّه أرقى من الجميع: أرقى من السياسيين الفاسدين الّذين ينهشون لحم البلاد وأرقى كذلك من عموم الشعب. صحيح أنّه يزعم أنّه فقط ينطق عمّا يريده الشعب، ولكنّ "الشعب" إذ يبحث عن مخلّص من الوضع المتردّي الذي تعيشه البلاد فهو ينتظر لا مثيلا لنفسه بل إنسانا أعلى منه لا يزال متشبّعا بالمُثُل التي نفتقدها اليوم. أتى قيس سعيّد بفصحاه، وكأنّه ذلك النبيّ القادم برسالة فوقيّة يبشّر بها هذا المجتمع الغارق في الظلمات. كانت هذه الفصحى أحد المعالم في بناء سرديّة الإنسان المستقيم النزيه الّذي يرتقي فوق كلّ الشبهات.

باعتماده لهذا اللون من الفصحى، يبدو أنّ قيس سعيّد نجح في قلب ما كان يبدو نقاط ضعف في خطابه إلى ميزات يتقدّم بها على منافسيه في الساحة السياسية بأشواط. لعلّه استفاد في ذلك من النمطيّة السائدة لدى سائر السياسيين والّتي تجعل من الصعب التمييز بين خطاب وآخر. لقد نجح لأنّه بإصراره على الحديث بالفصحى، كما كان قبل دخوله إلى مضمار السياسة، كان نفسه ولم يرتد جبّة غيره، وذلك بغضّ النظر عن بقيّة معالم خطابه السياسي، وخاصة مضمونه الّذي يبدو أنّه لم يتطوّر حتّى بعد دخوله إلى قصر قرطاج. غياب الانتقال من القول (الغارق في التعميم والتعويم) إلى الفعل (المتعالي عن مجرّد الامتناع) يضفي نوعا من النمطيّة التي تجعل بمرور الوقت شعبيّة الرئيس مهدّدة بالتآكل شيئا فشيئا.

> *"أتى قيس سعيّد بفصحاه، وكأنّه ذلك النبيّ القادم برسالة فوقيّة يبشّر بها هذا المجتمع الغارق في الظلمات"*

قراءة في مذكرات خير الدين باشا:
التقاء الذاتي بالموضوعي

بقلم: **هشام الزعبي**
أستاذ مبرّز في التاريخ
hichem@tounesaf.org

تعد المذكرات صنفا خطيرا من المصادر التاريخية، فهي من جهة تقدم قراءة مباشرة للأحداث وغير بعيدة عنها وبذلك تنجو من التحريف الذي قد يلحقها بفعل التناقل المستمر لها. ومن جهة أخرى تقدم الرواية التاريخية وفق منظور ذاتي يفتقر عادة إلى التنسيب والنقد. لذلك يمكننا أن نقول أن المذكرات بالنسبة للشخصيات الفاعلة، التي لا تمتلك كامل تاريخها الشخصي. بل تشترك فيه أحيانا مع شعوب بأسرها، تمثل التقاء الذاتي (القراءة الشخصية للأحداث والأوضاع) والموضوعي (التاريخ المشترك).

ولا تشذّ مذكرات خير الدين باشا (1821-1889) عن هذا التصور فهي تمثّل محطة التقاء بين ذلك التاريخ "الرسمي" المتداول حول هذه الشخصية وقراءتها الذاتية والخاصة للأحداث والأوضاع. فكأننا بخير الدين من خلال مذكراته يريد أن يستبق ما قد يحصل نتيجة تداول خاطئ لمجريات الأمور أو يستبق مصادرة حقه في الكلام والدفاع عن مواقفه.

تقديم عام لمذكرات خير الدين

لم يكتب خير الدين مذكراته بنفسه بل أملاها على كاتبه الخاص باللغة الفرنسية، وبالمقارنة مع وثائق أخرى فلقد تأكد الأستاذ محمد صالح مزالي أن المذكرات كتبت بخط أدولف ياكوت (سويسري من نيوشاتال) الذي شغل خطة كاتب ومدرّس للأطفال لدى خير الدين من 1885 إلى حدود وفاة صاحب المذكرات في 1889.

تمكن الأستاذ محمد صالح مزالي من الحصول على مذكرات خير الدين ورسائله من ابنه الطاهر خير الدين. وفيما بعد نشر قسما من رسائله (العربية) بالمجلة الزيتونية بين سنتي 1939 و1940. أما الوثائق والنصوص الفرنسية فقد نشرها بمعية جون بينيون تباعا في المجلة التونسية فيما بين 1934 و1940.

ورغم كل هذه المجهودات فلقد بقيت مذكرات خير الدين مجهولة من قبل الكثير من المهتمين بالتاريخ التونسي. خاصة والعثماني عامة إلى حدود تحقيقها وتعريبها من طرف الأستاذ محمد العربي السنوسي، وأشرف المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) على نشر هذا العمل سنة 2008.

خير الدين ورحلته من القوقاز إلى تونس

يفتتح خير الدين المذكرة الأولى التي حملت عنوان: "إلى أولادي: حياتي الخاصة والسياسية" بالجملة التالية: "رغم يقيني بأني شركسي الأصل، فإنني لم أحتفظ بأي ذكرى دقيقة عن موطني ولا أهلي".

وهنا تجب الإشارة إلى انتماء خير الدين بالتالي إلى منطقة "شركسيا" في شمال القوقاز والتابعة حاليا للفدرالية الروسية بعد أن تم احتلالها بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر وكانت مستقلة بموجب اتفاقية فيينا في 1815.

والمرجح أن خير الدين وقع اختطافه في ظل الحروب المنجرة عن هذا الاحتلال إذ يقول: "لقد وقع اختطافي، إثر بعض الحروب أو عند بعض الهجرات، في سن مبكرة جدا، من عائلتي".

وتعكس هذه الحادثة تمزق المماليك الذين يتم اختطافهم وبيعهم للبلاطات الشرقية بين الموطن الأصلي الذي أشار إليه خير الدين بصريح العبارة وبين البلاد التي يقضي فيها حياته ويقدم لها خدماته والتي يشير إليها خير الدين في مذكراته بـ"موطني بالتبني".

بالنسبة للعائلة، فيبدو أن خير الدين عند سطوع نجمه أحس بوطأة هذا التمزق وأراد أن يبحث له عن أصول تخرجه منه فراح يبحث عن أفراد أسرته الأولى ولكن دون جدوى إذ يقول في مذكراته بكل مرارة متحدثا عن عائلته: "افتقدت أثرها إلى الأبد. وقد باءت الأبحاث التي قمت بها منذ ذلك الوقت في عديد المناسبات للعثور عليها دائما بالفشل". غير أن بعض الإشارات تؤكد أن خير الدين نجح نسبيا في التعرف على بعض أصوله إذ أطلق على نفسه في وصيته (1886)"خير الدين بن حسن بن عبد الله".

وبالعودة إلى التاريخ المتداول فإن تاريخ ميلاد خير الدين (أي 1821) يصبح محل شكوك حيث تؤكد الأرشيفات العثمانية بأنه من مواليد 1242 هـ. الموافق لـ 1826 م. ويرجح مترجم المذكرات الأستاذ محمد العربي السنوسي بأنه ولد بين 1822 و1826.

وبعد اختطافه سيتحول المسار التاريخي لهذه الشخصية نهائيا ليصبح جزء من مسار أكبر وهو المسار العثماني والتونسي. ففي البداية وقع بيع خير الدين إلى أحد أشراف اسطنبول وهو تحسين باي الذي كان قاضيا عسكريا. وباعه هو بدوره إلى أحد وكلاء القصر البايلكي بتونس لينتقل هذا الشاب إلى قصر البايات الحسينيين بتونس.

> *"كان خير الدين متخوفا من غياب المؤسسات الكفيلة بالإبقاء على الإصلاحات التي قام بها وارتباط السلطة السياسية بالأفراد"*

خير الدين وتراجيديا الفساد والإفلاس بتونس

انتقل خير الدين إلى الخدمة لدى البايات في العسكر في فترة حكم أحمد باي (1837-1855). وقضى في الحياة العسكرية فترة طويلة ارتقى فيها إلى أعلى الرتب العسكرية وذلك إلى حوالي 1854 عندما غادر الجيش وامتهن السياسة ليصطدم بقوة بالتيار الذي كان يديره طيلة فترة طويلة مصطفى خزنه دار ومحمود بن عياد.

لم يتردد خير الدين في مذكراته برميهما بالفساد والسرقة حيث يقول :"استغلا كما طاب لهما الإيالة المسكينة طيلة عشرين سنة"، لا سيّما أنّ أوّل مهمة سياسية له كانت الدفاع عن مصالح تونس ضدّ محمود بن عياد بعد فرار هذا الأخير إلى فرنسا

في المقابل، ظلّ الخلاف بين خزنه دار وخير الدين قائما وذلك رغم الصلة العائلية التي تربط بينهما حيث كان خير الدين متزوجا من جنينةابنة خزنه دار. فبعد ترؤسه للمجلس الأكبر الذي وقع إقراره بموجب دستور 1861 سرعان ما استقال منه سنة 1863معلّقا على ذلك قائلا :"لا أريد بوجودي في تسيير شؤون البلاد، المساهمة في التلاعب بمصير موطني بالتبني الذي يدفعونه دون رحمة إلى الإفلاس".

في الأثناء سقطت البلاد في دوامة التداين مما دعا خير الدين إلى الرجوع للحياة السياسية بترؤسه للكومسيون المالي في 1869 ثم توليه الوزارة الكبرى سنة 1873 بعد مغادرة غريمه السياسي مصطفى خزنه دار.

ولكنه وجد نفسه من جديد أمام نفس التيار الذي كان هذه المرة بقيادة الباي نفسه وهو محمد الصادق باي (1859-1882) بمعية "نديمه"(كما

المصدر: ويكيبيديا اللوحة للويس سيميل

أسماه خير الدين) وهو مصطفى بن اسماعيل.

ونلاحظ من خلال مذكراته أن خير الدين كان متخوفا من غياب المؤسسات الكفيلة بالإبقاء على الإصلاحات التي قام بها وارتباط السلطة السياسية بالأفراد حيث يقول: "الرخاء الذي نجحت في تحقيقه للبلاد كان نتيجة لمجهودات فردية، وكنت متخوفا من أن يحصل الانهيار، عندما لا أكون موجودا".

كانت الغلبة في النهاية لحزب الباي ومصطفى بن اسماعيل بعد إجبار خير الدين على الاستقالة في 1877 و"انتهى الأمر بتسليم البلاد للفرنسيين".

خير الدين من الوزارة الكبرى إلى الصدارة العظمى

لم يخف خير الدين في مذكراته تأثره الشديد بالنزعة العثمانية فترة توليه المسؤوليات السياسية بتونس حيث اعتبر أن مناعة البلاد في علاقاتها الخارجية مرتبطة بشكل عضوي بوضعها الجغراسياسي كإيالة عثمانية. كما نلمس لديه الإحساس بالانتماء إلى الكيان العثماني ككل وليس الإيالة التونسية فقط.

وأتيحت له فرصة المشاركة في تسيير دواليب الامبراطورية العثمانية منذ سنة 1878 بعد دعوته من طرف السلطان العثماني عبد الحميد الثاني في ظرف كانت فيه الأستانة تعاني من مخلفات مؤتمر برلين.

ويظهر من خلال المذكرات أن خير الدين كان في البداية متهيبا مما قد يقلد به من مناصب إذ يقول: "كنت أشعر بالعجز بعدم التوفيق في الوظائف العمومية، في بلد جديد بالنسبة لي مثل تركيا."

وحصل ما كان يخشاه خير الدين إذ كلّف في 4 ديسمبر 1878 بالصدارة العظمى وهي المنصب الأكثر أهمية في تركيا بعد منصب السلطان.

وحسب المذكرات فلقد برع خير الدين أثناء توليه هذا المنصب في المسائل الخارجية على وجه الخصوص إذ نجح في إبرام معاهدة بين الدولة العثمانية وروسيا إثر الحرب التي نشبت بينهما من أفريل 1877 إلى مارس 1878.

كما تعامل مع احتلال البوسنة والهرسك من طرف صربيا وكان رافضا لهجرة البوسنيين نحو تركيا معتبرا أنهم يمثلون ورقة ضغط بالنسبة للدولة التركية داخل أوروبا إذ يقول في هذا الصدد: "إن سمحت حرب أوروبية أو أي واقعة أخرى مستقبلا لتركيا بأن تكون في موقع المطالب، فإنها ستجد موقعا متقدما ثمينا بفضل هؤلاء السكان المخلصين".

وعلاوة على ذلك فلقد سعى خير الدين بجهود حثيثة، مثلما تظهر مذكراته، لعزل الخديوي اسماعيل حاكم مصر معتبرا إياه مبذرا للأموال العمومية وذي نزعة استقلالية تجاه الامبراطورية.

ورغم كل هذه الجهود فإن المذكرات تخبرنا أن خير الدين وجد من المؤامرات والدسائس عند وزرائه أكثر مما وجده سابقا في تونس. حيث وقع اتهامه بالرغبة في تحقيق مآرب شخصية إذ نسبت إليه نية تكوين مملكة عربية لفائدته تضم مصر وطرابلس وتونس ولذلك وجب عليه خلع خديوي مصر ثم باي تونس.

ويقول خير الدين معلقا عن نتائج ما روج حوله: "أعتقد أن هذه الافتراءات الخادعة والتافهة ...هي التي أثارت الفزع والحفيظة في ذهن السلطان إزائي وإزاء أفكاري." كل هذا دفع بخير الدين إلى الاستقالة في أواخر جويلية 1879.

وبقي مقيما باسطنبول إلى أن وافته المنية هناك سنة 1889. وجلب رفاته في عهد رئيس الجمهورية التونسية الحبيب بورقيبة إلى تونس ليتم دفنه في مقبرة الزلاج في 1968.

في ختام القول، لا يسعنا سوى أن نؤكد أن مذكرات خير الدين باشا تمثل إضافة حقيقية في الدراسات التاريخية المتعلقة بالفترة الحديثة من تاريخ البلاد التونسية حيث مكنت من إزاحة اللثام على العديد من النقاط التي ظلت مجهولة من تاريخ هذه الشخصية وتموضعها الذاتي في التاريخ العام أو المشترك.

نمط الانتاج المخامسي والجذور التاريخية للتخلف

بقلم: **فهمي رمضاني**
أستاذ مبرّز في التاريخ وعضو الهيئة المديرة لجمعية تونس الفتاة
fahmi@tounesaf.org

تعد مسألة نمط الإنتاج السائد قبل توطن الرأسمالية ببلدان المغرب العربي، من الإشكاليات التاريخية والاقتصادية التي حظيت باهتمام عدد لا بأس به من والباحثين، وذلك في إطار محاولة فهم البنى الداخلية للمجتمعات الشرقية قصد بيان أسباب عدم إفراز المجتمعات المغاربية للرأسمالية مقارنة بالمجتمعات الغربية باعتبار أن نمط الانتاج هو المحدد للتاريخ وللأشكال الاجتماعية المتنوعة حسب الماركسيين.

وعلى الرغم من تعدد الأبحاث المتعلقة بهذه المسألة وجدّيتها من إيف لاكوست إلى سمير أمين مرورا بالجابري، فإن المؤرخ التونسي- الهادي التيمومي قد نجح في قراءة الواقع النوعي للمجتمعات المغاربية وفهم إشكاليات التخلف من خلال ابتداعه لمفهوم جديد هو "نمط الانتاج المخامسي." الذي تجاوز من خلاله القراءات الاستشراقية والاستعمارية والتي كانت في جانب كبير منها مسقطة وليست وليدة بحث تاريخي جاد وعلمي. لذلك سنعمل من خلال هذا المقال على التعريف بهذه النظرية (نظرية نمط الانتاج المخامسي) ودورها في فهم جذور التخلف التاريخي ببلدان المغرب العربي كما سنتطرق كذلك إلى أبرز النظريات الأخرى التي حاولت معرفة نمط الانتاج السائد قبل فرض الرأسمالية الغربية.

> *"لم يبلغ الملّاك العقاريون ما بلغه نظراؤهم في أوروبا الفيودالية من استقلال سياسي حتى في فترات تراجع الدولة"*

النظريات المتعلقة بنمط الانتاج

من أهم هذه النظريات، تلك المتعلقة بنمط الانتاج السائد قبل مجيء الاستعمار والتي اعتمدت على المادية التاريخية وعلى الماركسية من أجل فهم هياكل وبنى المجتمع والاقتصاد ونذكر من بينها:

نمط انتاج فيودالي[1] خاص

تعتبر الروسية سفتلانا باتسيافا المنظّرة لهذه الفكرة وأبرز المدافعين عنها، اذ ترى أن نمط الانتاج الفيودالي الخاص يتميز بوجود نبلاء يمتلكون الأرض ومزارعين وأقنان مرتبطين إليها قانونيا. ومن أجل السيطرة على الأقنان والاستيلاء على عملهم وإنتاجهم في شكل ريع عقاري، يعتمد النبلاء على وسائل "إكراه لا اقتصادية".

تعرضت هذه النظرية للعديد من النقد لأنها لا تتلاءم مع الخصوصيات الحضارية والثقافية لبلدن المغرب العربي، اذ لا يمكن الحديث عن الفيودالية للأسباب التالية: فالنبيل الفيودالي في أوروبا كان يمارس على الفلاحين في ضيعته السلطة السياسية والقضائية، كما كان يحتكر نوعية من السلاح: أي أنه كان يمتلك استقلالية مهمة عن الدولة بسبب ضعفها وتفككها السياسي، إذ كانت ممتلكات النبلاء عبارة على دويلات صغيرة مستقلة عن السلطة المركزية. في حين أن الأمر لم يكن على هذه الشاكلة في المغرب العربي حيث لم يبلغ الملّاك العقاريون ما بلغه نظراؤهم في أوروبا الفيودالية من استقلال سياسي حتى في فترات تراجع الدولة.

فضلا عن ذلك، فإن الأقنان في أوروبا الفيودالية حتى وإن لم يكونوا أحرارا فإنهم كانوا يمتلكون أدوات الإنتاج والعمل، كما أن الاستغلال المسلط عليهم لم يكن عميقا مثلما كان الأمر في المغرب العربي. فقد كان القن يعمل أياما على الأرض التي يشرف عليها النبيل وأياما لصالحه الخاص، كما أنه يتمتع بحوافز تشجيعية هامة الأمر الذي جعله يسهم في تحويل النظام الفيودالي إلى نظام أرقى هو النظام الرأسمالي.

نمط الانتاج الإتاوي

يعد سمير أمين أحد الماركسيين العرب الذين أسهموا في تقديم قراءات جديدة للمسائل المتعلقة بالتطورات التاريخية للعالم العربي وعلاقتها بالرأسمالية والعولمة. ويؤمن هذا الأخير بوجود قوانين أساسية تحكم تطور كل المجتمعات الانسانية منها قانون التطور اللامتكافيء الذي يؤكد على وجود بلدان مركز مهيمنة وبلدان أطراف متخلفة ومهيمن عليها في كل حقبة تاريخية.

حسب سمير أمين، يتميز نمط الانتاج الإتاوي بعديد السمات منها انقسام المجتمع إلى طبقتين هما: الفلاحون الحائزون للأرض وطبقة حاكمة تحتكر وظيفة التنظيم السياسي وتنتزع من جماعات الفلاحين إتاوات. تهيمن البنى الفوقية حسب سمير أمين على مجتمعات نمط الانتاج الإتاوي حيث يكون للدين تأثير كبير في الحياة السياسية والاقتصادية الأمر الذي يجعلها تتسم دائما بالاستقرار والسكون والركود.

على الرغم من أهمية الجهد التنظيري الذي قام به سمير أمين فإن نظريته تعرضت للكثير من النقد خاصة من قبل المؤرخ التونسي- الهادي التيمومي الذي يرى أن نظرية نمط الانتاج الإتاوي هي مقولة ذات طابع تعميمي ولا تنطبق على كل المجالات العربية التي كانت لم تكن خاضعة لنفس السلطة السياسية أو لنفس البنى الاقتصادية والاجتماعية[2].

نمط الإنتاج المخامسي: النظرية التي لم يقرأها العرب

يعتبر الهادي التيمومي من بين المؤرخين القلائل الذين أعادوا النظر في مسألة نمط الانتاج

[1] سنعتمد مصطلح الفيودالية بدل مصطلح Féodalité الاقطاعية لأنه الأدق علميا

[2] أنظر كتابه المعنون Le Maghreb pré-moderne : généalogie d'un retard historique.

السائد في دول المغرب العربي في الفترة التي سبقت الحضور الاستعماري الأوروبي. فقد عمل على ايجاد قراءة جديدة للواقع النوعي الخاص بتاريخ المغرب العربي وذلك من خلال دراسة القاعدة المادية الانتاجية والبنى الفوقية والثقافية والهياكل الاجتماعية من أجل فهم أسباب عجز هذه المجتمعات عن إنتاج الرأسمالية.

بالنسبة لهذا المؤرخ، سيطر نمط الانتاج العبودي (المعتمد على العبيد) طيلة الفترة الرومانية ثم تواصل إلى حدود مجيء القبائل الهلالية وتأسيس الدولة الموحدية حيث أخذت تعتمل في رحم المجتمعات المغاربية بوادر جديدة كانت إيذانا بولادة نمط انتاج جديد سيحدد المصير الحضاري للمغرب العربي وهو نمط الانتاج المخامسي.

يعتقد الهادي التيمومي أن ابن خلدون قد تحسس-وإن بشيء من الضبابية- ولادة هذا النمط الجديد فالإشارات الاقتصادية التي وردت في المقدمة لم تكن وليدة الصدفة وإنما هي نتيجة للتحولات النوعية التي مست القاعدة المادية للمجتمعات المغاربية. وقد مهدت لنشأة نمط الانتاج المخامسي. ثلاثة مؤشرات تتمثل أساسا في تقلص موارد القرصنة نظرا لضعف القوة البحرية المغاربية وتراجعها مقابل الصعود القوي للمدن التجارية الإيطالية (البندقية، بيزا، جنوة) وتكثّف عمليات الاسترداد المسيحي بالأندلس. تراجعت كذلك موارد التجارة الصحراوية، خاصة تجارة الذهب، نتيجة انهيار المدن الداخلية وتحول المسالك التجارية نحو المدن الساحلية الأمر الذي أسهم في تراجع الموارد المالية للدول المغاربية. أما المؤشر الثالث فيتمثل في انتشار الفقر والبداوة والتبدي منذ مجيء الهلاليين وتراجع الفلاحة والعمران وتدهور الاقتصاد الذي أصبح قائما على تجارة متوسطية غير متكافئة مع الغرب اللاتيني.

ولا ريب أن كلّ ذلك سيؤدي إلى ظهور الخماسة وهي عقد فلاحي يهم قطاع الحبوب يتم عقده بين الخمّاس والملّاك العقاري ويمتد هذا نظريا على كل السنة الفلاحية (من سبتمبر الى جوان). وقد تطورت مؤسسة الخماسة نتيجة تقلص العبودية ونقص اليد العاملة التي تسبب فيها الانحسار الديمغرافي الناتج عن وباء الطاعون الأسود.

وقد مرّ نمط الإنتاج المخامسي حسب الهادي التيمومي بمرحلة صاعدة ومرحلة أخرى هابطة. امتدت المرحلة الصاعدة تقريبا من الدولة الموحدية إلى نهاية فترة السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز (1394-1434) وتتميز هذه المرحلة بتطور قوى الانتاج وازدهار الاقتصاد وانتعاش المجتمع. إذ ليس من باب الصدفة أن ينتج المغرب الإسلامي في هذه الفترة عباقرة في كل المجالات: ابن رشد، ابن باجة وابن طفيل في الفلسفة، الشاطبي في الفقه، ابن خلدون، ابن عذاري، ابن أبي زرع، ابن قنفد، وابن الشماع في التاريخ، الادريسي، التجاني، وابن بطوطة في الجغرافيا. كما شاع في هذه الفترة تأليف الكتب الجنسية مثل كتاب الروض العاطر للنفزاوي وكتاب نزهة الألباب للتيفاشي الأمر الذي يكشف وجود اندفاع نحو الحياة أنتج حضارة مغاربية في أوج ازدهارها.

و لكن سرعان ما سيدخل هذا النمط من الانتاج في مرحلة

"
الإشارات الاقتصادية التي وردت في المقدمة لم تكن وليدة الصدفة وإنما هي نتيجة للتحولات النوعية التي مست القاعدة المادية للمجتمعات المغاربية
"

هابطة ستكون منعرجا حاسما سيجعل المنطقة تسبح في تخلف مريع إلى اليوم. وقد اتسمت هذه المرحلة بتعطل قوى الانتاج وانهيارها نظرا لكون نمط الانتاج المخامسي قد ولد "كسيحا" على حد عبارة الهادي التيمومي أو هو شبه معوق لأنه نمط إنتاج "مغلق" حيث أن المنتجين المباشرين (الخماسة) لا يتمتعون بأية حوافز تشجيعية وبالتالي يصعب حصول تغيرات نوعية في صلب التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية أي إمكانية التحول نحو نظام اقتصادي أرقى مثلما كان الأمر مع أوروبا الغربية.

وبذلك يمكننا أن نفهم جذور التخلف الكامنة في طبيعة نمط الإنتاج المخامسي،"فالعمال الخمّاسة كانوا يعملون وفق مبدأ المجهود الأدنى"على حد عبارة الهادي التيمومي وبذلك لا يمكن أن تنتظر منهم أيّ زيادة في الانتاج أو أي تغيير في صلب القاعدة المادية.

يمكن إرجاع عدم تحمس الخمّاسة للعمل وللتغيير للأسباب التالية حيث كان الخمّاس خادما ومولى لسيده وليس هناك فرق جوهري بينه وبين العبد، لذلك كان من مصلحة الخمّاس بذل أقل ما يمكن من الجهد وبالتالي فإن هذه المؤسسة لا يمكن أن تؤدّي إلا إلى ركود الانتاج وتدهوره.

زيادة على ذلك، فإن "الطابع التغييبي" للملاكين العقاريين بدول المغرب العربي جعلهم على حد عبارة الهادي التيمومي "مستقلين اقتصاديا"فهم أصحاب ريوع عقارية يستنكفون من متابعة العمل الفلاحي الذي يعتبرونه "معاش المستضعفين"كما أنّ استهلاكهم غير منتج، ولا ريب أن المثل الشعبي التالي يلخّص ما كنا بصدد شرحه: "اخدم يا خمّاس يا تاعس على الراقد الناعس". وعلى عكس الخمّاسة الذين كانوا مضطهدين الى أقصى حد ويعملون طوال السنة الفلاحية، فإن الأقنان في أوروبا الفيودالية كانوا يتمتعون بحيازة الأرض ولا يعملون إلا أياما فقط لفائدة النبيل ويخصّصون الأيام المتبقية لحسابهم الخاص.

لا ريب أن كل هذا سيؤدي الى تراجع قوى الانتاج وانهيار الاقتصاد وانتشار الفقر وبالتالي الدخول في مسار الانحدار والتخلف وقد تجلّى ذلك من خلال سيطرة المذهب المالكي نهائيا وغياب التجديد والاجتهاد حيث تحول التعليم الى تدريس للجهل خاصة بعد محنة ابن رشد. أما حصيلة الرحلات الجغرافية للرحالة المغاربة فقد كانت سلبية، إذ لم يجن منها أي فائدة اقتصادية أو علمية أو تقنية على عكس الرحلات التي قام بها الأوروبيين (كريستوف كولمب، ماجلان، فاسكو دي قاما ...) التي ستفتح لهم عوالم جديدة وتكون سببا في تراكم رؤوس الأموال وانهيار النظام الفيودالي.

كما أن الأوبئة المتواصلة والدورية حولت المنطقة (المغرب الإسلامي) إلى "منطقة ضغط ديمغرافي منخفض" على حد قول الأستاذ محمد الطالبي. دون أن ننسى كذلك بداية التفوق الأوروبي ثقافيا (ظهور الحركة الانسانية والبوادر الأولى للنهضة الأروبية) وسياسيا (بدايات ظهور الدولة القومية وتراجع الامبراطوريات القائمة على الدين) واقتصاديا (تراجع الفيودالية وبداية ظهور الرأسمالية).

نعتقد أنّه لا يمكن فهم جذور التخلف بدون العودة الى البنى المادية والتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية التي تكشف عن طبيعة نمط الانتاج السائد. فنمط الانتاج المخامسي هو نمط انتاج مغلق أعاق إمكانية التطور نحو الرأسمالية أو إمكانية تطوير قوى الانتاج لتحقيق التقدم والإقلاع الحضاري.

كما يتوجب علينا كذلك البحث في الأبنية الفوقية للمجتمع (سيطرة الدين، الاستبداد الشرقي، العزوف عن السيطرة على الطبيعة) من أجل فهم أدق لإشكالية التخلف التاريخي خاصة وأننا نعيش اليوم في خضم سياقات تاريخية لا تختلف كثيرا عما عشناه في الماضي ولعلّ ذلك هو المقصد الرئيسي من العودة للتاريخ.

> *"كان من مصلحة الخمّاس بذل أقل ما يمكن من الجهد وبالتالي فإن هذه المؤسسة لا يمكن أن تؤدّي إلا إلى ركود الانتاج وتدهوره"*

المراجع الأساسية

- التيمومي (الهادي)، **الغائب في تأويلات العمران البشري الخلدوني**، تونس، دار محمد علي الحامي،2007.
- التيمومي (الهادي)، **الاستعمار الراسمالي والتشكيلات الاجتماعية ما قبل الراسمالية: الكادحون الخماسة في الأرياف التونسية (1861-1943)**، جزءان، دار محمد علي الحامي وكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 1999.

هل فعلا كلّ شيء يحدث لغاية معيّنة؟

تخيّل معي أن تكون حياتك مرتّبة وطبيعية، وكلّ شيء فيها يسير بشكل جيد، ثم فجأة ودون سابق إنذار، يحدث شيء لم تتوقّعه ولا تفهمه. وكأي شخص طبيعي يتعرّض لموقف مماثل، تتساءل بشكل تلقائي "لماذا حدث ذلك؟"

لعلّ عبارة 'كلّ شيء يحدث لغاية معيّنة' من أكثر الفرضيّات الدّارجة في الحياة. قد تبدو الفكرة مستوحاة أساسا من الأديان التي تخبرنا أن لكلّ منّا قدرا مرسوما وأنّ كل ما يحدث في حياة كل منّا من خير وشر، يحدث لسبب معيّن، ولغاية قد نعلمها أو نجهلها. لكن ربما يتجاوز الموضوع فكرة القدر بما يحمله بين طيّاته. فهل يحدث كلّ شيء لغاية معيّنة فعلا؟

أعتقد أنّنا جميعا كبشر، نتعرّض بشكل مستمر لمواقف تجعلنا نتساءل عن مسبّبات حدوث الأشياء، إذ أننا نميل لفهم منطق الأشياء مما يجعلنا نربط كلّ حدث في حياتنا بغاية معيّنة، وحين لا ندرك الغاية المقصودة، نفسّر ذلك بكون ما يحدث مجرّد خطوة أساسية الخطّة التي رسمها لنا القدر.

أعتقد أنّ جزءا منّا يؤمنون بلا شكّ بكون كل شيء يحدث لغاية معيّنة لآخر رمق في حياتهم وبشكل ما يجدون ترابطا عجيبا وتفسيرا منطقيّا للغاية لكل تلك الأحداث، ولكن الآخرين يتوقّفون يوما ويفكّرون " هل يمكن للإنسان أن يعيش مع حقيقة كون بعض الأشياء، وخصوصا السيئة منها تحدث بلا هدف؟ هل يعقل ألّا يكون هناك منطق خفي لكلّ الفوضى التي قد تحدث في حياة شخص ما وتغيّرها تماما؟"

حقيقة، لا يمكن معرفة أيّ الطّرفين على حق، أولئك الذين يؤمنون أن هناك سببًا لكل ما يحدث أو أولئك الذين يجزمون أنّ الأشياء تحدث بشكل اعتباطي؟ وعلى الأغلب كلاهما على حقّ.

جميعنا نريد أسبابا وغايات لإدراك الأمور، ويرتبط ذلك بتشكّل معنى الحياة في عقولنا. جميعنا نريد أن نؤمن أننا نعيش في عالم لا يتحوّل فيه أي من تعبنا أو ألمنا أو خيباتنا إلى هباء، نريد أن نعيش في عالم لا يضيع فيه شيء.

لعلّنا لا نريد أن ندرك أننا نعيش في عالم تحدث فيه أشياء رائعة ومأساوية في اللحظة ذاتها، وأن الحياة جميلة وغير عادلة في الآن نفسه، ولعلّنا لا نتمكّن من التعايش مع هذا التناقض، ولكنّنا ندرك في أوقات كثيرة أن هذا التناقض يسير بشكل متواز مع حياتنا.

لعلّ فكرة حدوث كلّ شيء لسبب معيّن تجعل الرّحلة أصعب، ربّما نحتاج أن نعيش ونحب دون احتساب التكلفة ودون الحاجة إلى سبب لحدوث كلّ شيء ودون التأكّد من عدم ضياع أي شيء..

ربّما يحدث كلّ شيء لغاية معيّنة، لا لأنّ تلك هي حقيقة الوضع، بل لأنّنا نمنح الأحداث سببا، ربّما نحن نخلق الأسباب ونصدّقها، لكن هذا لا يعني أنها حقيقية، بل قد تكون مجرد نسج من عقولنا وطبيعتنا البشرية المرنة وكي لا نفقد معنى هذه الحياة وكي لا نفقد الأمل.

ربّما لا يكون الافتراض الدارج لكون كل شيء يحدث لغاية معيّنة دليلاً على أن أي شيء يحدث لسبب ما، بل قد يكون مجرّد وجه آخر للأمل، ودليلا على أن الإنسان له طبع مقاوم، يجعله عند حدوث الأسوأ يفكّر ويحاول العثور على تفسير يمكّنه من مواصلة رحلته.

بقلم: **خولة القاسمي**
مجرّد إنسانة تؤمن باللُطف وتقدّس الكلمات وتحاول ترك أثر مُشرق
khaoula@tounesaf.org

"

لعلّ فكرة حدوث كلّ شيء لسبب معيّن تجعل الرّحلة أصعب، ربّما نحتاج أن نعيش ونحب دون احتساب التكلفة ودون الحاجة إلى سبب لحدوث كلّ شيء ودون التأكّد من عدم ضياع أي شيء

"

جمعية تونس الفتاة ومؤسسة كونراد أديناور

المنتدى الفكري "سيزيف"

إشراف: فهمي رمضاني

KONRAD ADENAUER STIFTUNG

التاريخ من رحاب الأكاديميات إلى الفضاء العام

سلسلة محاضرات

من مارس إلى ديسمبر 2021